مداخلة بعنوان:

الإسهامات السوسيولوجية لمالك ابن نبي

الأستاذ:شنقال طارق

"جامعة ورقلة"

ملخص المداخلة:

عام 1905م شهد على ولادة ثلاث عبقريات: فأما الأولى فكانت في الفيزياء النووية دشنها (آينشتاين) في نظرية النسبية الخاصة، وأما الثانية فكانت في الفلسفة، فشهدت ولادة فيلسوف الوجودية (سارتر)،والثالثة كانت في علم الاجتماع الذي جدد سيرة ابن خلدون، وجاءت من مهندس كهربائي من خارج حقل علم الاجتماع كما هو دأب المبدعين، وكانت من المفكر الجزائري مالك بن نبي.

تظل أطروحات المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي – والتي بدأ في بلورتها منذ أواسط الثلاثينات من القرن الماضي– مواداً أولية لكثير من المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ورغم أن أغلب أفكاره ورؤاه حول مسائل الحضارة والتغيير الاجتماعي قد تم تناولها من قبل الباحثين؛ إلا أن الكثير من أفكاره لا تزال في حاجة إلى البحث والتقصي الجاد.

مالك بن نبي يعتبر من تلك الفئة من المفكرين الأفذاذ الذين شكلت كتاباتهم علامات بارزة في مسيرة النخب الثقافية الإسلامية الآن، فعلى امتداد دول المغرب العربي والبحر الأبيض والقرن الإفريقي والخليج وشمال أفريقيا تجد تأثير مالك بن نبي بارزاً لا يحتاج إلى كثير جهد لملاحظته.

في هذه المداخلة إبراز أهم إسهامات مالك بن نبي في السوسيولوجيا، كما سنلقي الضوء على بعض رؤى المفكر في مواضيع الحضارة والتغير الاجتماعي وعوائقه والنماذج المطبقة في بعض البلدان استنادا على هذه الإسهامات.

تمهيد :

إنّ المتتبع لتاريخ الأفكار ومختلف المفكرين الذين برزوا في العالم الإسلامي في القرن العشرين سيلاحظ أن هناك عدة اتجاهات فكرية تتوزع بين اليسار واليمين والوسط، وبين اتجاهات محافظة وأخرى مجددة. وبين هذا النسيج يتميز مالك بن نبي بكونه رائد اتجاه فكري غير مسبوق في العالم الإسلامي وهو الذي يمكن أن نطلق عليه الاتجاه الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر. ذلك أنه أول من جعل "الحضارة" وحدة التحليل. ولذلك جاءت كل كتبه تحت عنوان رئيسي هو مشكلات الحضارة. ولإدراك تميز مالك بن نبي كرائد للاتجاه الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر بمكننا أن نستعرض باختصار جهود بعض المفكرين الذين عالجوا قضايا العالم الإسلامي من زوايا مختلفة .

فنجد محمد عبده مثلاً دعى إلى إصلاح مناهج تدريس العقيدة، ومواكبة تطورات العصر وتقديم إجابات علمية رصينة على أسئلة المشككين ونفاة العقيدة وفي نفس الوقت معالجة الآراء المنحرفة التي تمس مصداقية العقيدة الإسلامية. كما نجد جمال الدين الأفغاني دعا إلى إصلاح نظام الخلافة ومحاربة الاستعمار. وهناك مفكرين مثل طه حسين دعا إلى تبني الغرب والذوبان فيه. وبالنسبة لمالك بن نبي كل هذه الطروحات تعتبر في رأيه جزئية وقاصرة عن فهم جوهر وحقيقة تخلف المسلمين وعدم مواكبتهم لتطورات المعاصرة. واعتبر هذه الإشكالات التي طرحها هؤلاء المفكرين أعراض ظاهرية لمشكلة أعمق وأشمل وهي "مشكلة الحضارة."

كان لمالك بن نبي منهج معين في التفكير والتأمل والتحليل محاولاً إيجاد الحلول الشاملة للأزمة التي يعانيها العالم الإسلامي وذلك عبر تجاوز الأطروحات الجزئية التي تحاول دراسة مواطن الداء في المجتمع الإسلامي المعاصر .

ومن هنا يمكن القول أن مالك بن نبي ينظر للمشكلات من منظور حضاري شامل وليس منظور جزئي يعالج مشكلة عرضية .

1- نبذة مختصرة عن حياة مالك بن نبي:

ولد المفكر الجزائري مالك بن نبي في الأول من جانفي من سنة 1905بقسنطينة، ثم انتقل مع أسرته وهو لا يزال صغيرا الى مدينة تبسة، اين درس في الكتاب لمدة أربع سنوات ، وببعدها واصل تعليمه الابتدائي وكان متفوقا بحيث نال الشهادة بتقدير جيد جدا

انتقل بعدها إلى التعليم الثانوي بقسنطينة و هناك لم تكن تهمه دروس الثانوية فحسب بل كان يحضر دروس الفقه للشيخ " ابن العابد" و دروس النحو العربي و الصرف على الساعة السابعة من كل صباح أي قبل الالتحاق بالثانوية في الجامع الكبير.

في عام 1925 انتقل الى فرنسا بأحياء عن العمل وسرعان ما رجع مفضلا العمل في أرض أجداده . في عام 1927 عين في سلك القضاء بمدينة أفلو.

وسنة 1930 انتقل مالك بن نبي إلى فرنسا لغرض الدراسة فأجرى امتحانا للدخول الى معهد الدراسات الشرقية ولكن خابت آماله في الدخول لهذا المعهد فسجل نفسه في معهد اللاسلكي.
في عام 1936 عين مالك بن نبي بعد ذلك في مرسيليا على رأس نادي المؤتمر الجزائري لتثقيف العمال الجزائريين في فرنسا لكنه أغلق.

في عام 1936 عاد مالك بن نبي إلى الجزائر في هذه السنة، و تولى مناصب عدة منها مستشار التعليم العالي، و مدير جامعة الجزائر (المركزية)، و مدير عام للتعليم العالي. كما كانت له ندوة أسبوعية يعقدها في بيته بالجزائر العاصمة، وكانت مقصد الشباب من سائر العالم الإسلامي و أوروبا و هي "ندوة مالك ابن نبي" التي صدرت كتبه كلها تحت عنوانها هذا.

في عام 1967تعرض مالك بن نبي لمحاولة اختطاف أثناء عودته مع صديقه الدكتور الخالدي من الصين، وتتمثل العملية في محاولة تحويل الطائرة الى مطار اللد بإسرائيل، فكان الأستاذ مالك يردد أنا ضحية مؤامرة الصمت العربي.

في عام 1973 يوم الأربعاء 4 شوال 1393هـ الموافق لـ 1973/10/31 انتقل إلى رحمة الله المفكر الكبيـــــــر مالك بن نبـــــــي.[1]

2- مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي :

إنّ المتتبع لإنتاج مالك بن نبي يجده يولي اهتماماً كبيراً بمفهوم الثقافة ويعطي مكانة متميزة للأفكار. إنه يعتبر الثقافة هي المحدد الرئيس لمشكلة الحضارة. ويعرف مالك الثقافة بقوله: "هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"[2] ويصف الثقافة بأنها الغذاء الذي يتغذى منه جنين الحضارة الذي يعيش في أحشائه ويتحرك داخله فتتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر. ولا يفصل مالك المشكلة الفكرية عن محيطها النفسي والسلوكي لأن الثقافة عنده هي نظرية في المعرفة ومنهج في السلوك ومنهجية في البناء. [3] ويعتبر الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة وهي تتركب من أربعة عناصر هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي والصناعة. [4]

* عنصر الأخلاق وهي حصيلة تعاون خلاّق مبدع في حدود المجتمع تتمثل في تكوين الصلات الاجتماعية .
* عنصر الجمال لتكوين الذوق العام وتنظيم ذلك المجتمع.

* المنطق العملي وهي حصيلة ذلك الفكر المتصل بالأشياء عن طريق التفاعل والنشاط العملي العام .
* التقنية أو الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون. وهي حصيلة

الخبرة التقنية التي تعطي الصورة المتكاملة على صفحة الأشياء كالمظاهر والفنون التي تميز ثقافة ما عن غيرها من الثقافات. [5]

3- مفهوم الأفكار عند مالك بن نبي :

يرى مالك بن نبي أنه لا يمكن تغيير المحيط الثقافي للإنسان ما لم يتم تغيير أفكاره، وطريقته في رؤية الأشياء وفهم المحيط الذي يعيش فيه، والمجتمع الغني حقاً هو الذي يملك الأفكار "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من (أشياء) بل بمقدار ما فيه من أفكار".[6] ونفس المعنى يكرره بقوله: "فالمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً بنقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنما بافتقار للأفكار".[7] ولذلك دعا مالك بن نبي لتطوير نظم المفاهيم في العالم الإسلامي، وصناعة أفكار جديدة والتخلص من سلطة الأفكار الميتة والقاتلة التي تدمر نسيج المفاهيم لدى الأشخاص .

ومن ثم نخلص إلى أن مالك بن نبي، يركز على الحضارة باعتبارها وحدة تحليل، ويعتبر الثقافة هي وسيط التغيير، والأفكار هي محرك التغيير .

4- أسس الحضارة عند مالك بن نبي:

إن قضية الحضارة بدأت تزداد أهمية درستها يوماً بعد يوم حيث أن التجربة التاريخية تلعب دوراً أساسياً لتكوين المجتمع الحضاري المعاصر وتطلعه نحو المستقبل لأنه من المتسحيل أن يبدأ أي مجتمع انطلاقة من فراغ دون النظر في واقع تراثه الحضاري وذلك للاطلاع على إيجابياتها وسلبياتها ومعرفة المواقف والقيم التي ساهمت وتساهم في تكوين المجتمع الذي تصبو إليه. [8]

يرى مالك أن كل حضارة ينبغي أن يكون لها اتصال بماضيها وتراثها ولن يتحقق المستقبل الأفضل إلاّ بعد دراسة الماضي لأنه يحمل الكثير من مكونات الحاضر والمستقبل. فالمتأمل في أعمال مالك بن نبي الفكرية، يلاحظ أنها تحاول معالجة مسألة أساسية وهي مشكلة الحضارة فيقول مالك: "إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة"[9] وقد صرح يوماً في إحدى الجرائد المصرية بأنه قد نذر حياته لدراسة مشكلات الحضارة. فكانت جهود بن نبي تنصب على البحث عن حل لهذه المشكلة الإسلامية حلاً موضوعياً وذلك بمعالجة جوهرها وليس مظاهرها لأن المشكلة الرئيسية تكمن في الجوهر. ولهذا يقول "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها". ويرى مالك أن الدين هو أساس قيام المجتمعات والحضارات أياً كانت "فالحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلاّ بالعقيدة الدينية، وينبغي أن تبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها".[10]

5- تعريفات مالك بن نبي للحضارة :

هناك تعريفات مختلفة لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي فهو يعرفها بعبارات متغايرة في كتبه المختلفة بحسب الموضوع الذي يبحثه، فنجده يعرف الحضارة من الناحية التحليلية لمجموع مكوناتها وكأنها معادلة رياضية فيقول: "حضارة = إنسان + تراب + وقت. وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي تقيم بناء حضارة لا يكفي بأن نكرس المنتجات وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها". [11]

فهو هنا يجعل أي منتج حضاري بتفاعل هذه العناصر الثلاثة .

فالذي يقصده مالك من الإنسان هو بكونه وحدة اجتماعية وليس انفرادية، أما الوقت فهو مدة زمنية محددة بساعات معينة ينفقها الإنسان كوقتاً اجتماعياً مقدراً بساعات عمل. وأما التراب فهو ما يقدم غذاء الإنسان في صورة استهلاكية توفي بحاجات المجتمع تبعاً لعملية الإنتاج. [12]

فينظر ابن نبي هنا إلى الحضارة بمقدار ما يقدمه المجتمع من ضمانات مادية ومعنوية للفرد خلال مرحلة معينة منذ ميلاده وحتى وفاته حين ينتهي وجوده الاجتماعي .

أي أن الحضارة هي أداء اجتماعي وليس فردي .

6- الدورة الحضارية عند مالك بن نبي:

تشكل نظرية الدورة الحضارية التي طورها بن نبي بعد أخذها من ابن خلدون الذي يعتبر أول من اكتشف الظاهرة الدورية بما تحتويه من نقطة البداية ثم الصعود إلى القمة ثم الأفول، المدخل الذي نستطيع منه فهم دراسة بن نبي للحضارة. حيث أنه في دراسته لـــ (الظاهرة الدورية) يبدأ الفصل بقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ليؤسس عليها قانون التداول الحضاري. وهذا المبدأ يرتكز على أن الحضارة أيا كانت يحكمها قانون الهجرة أو الدورة. والذي يعني في حقيقته انتقال الحضارة بقيمها من مكان إلى آخر بحثاً عن العناصر الأولية التي يحتاج إليها الإنسان. فيتم الانتقال إلى مكان جديد وبذلك تبدأ الدورة الجديدة وهكذا إلى أن تنقضي البشرية ويجب فهم هذه الدورة من أجل استيعاب فلسفة البناء الحضاري. فدراسة التاريخ من الناحية الفردية هي دراسة نفسية. أما من الجانب الاجتماعي فإن التاريخ من هذا الجانب دراسة اجتماعية لأنه يكون دراسة شروط نمو مجتمع معين. وإذا كان من الصعب تحديد معرفة جذور هذه الحركة بدقة في المكان والزمان فإن أمامنا جانبين جوهرين للحضارة "الجانب الميتافيزيقي أو الكوني، وهو جانب ذو هدف وغاية، والجانب التاريخي الاجتماعي، وهو جانب مرتبط بسلسلة من الأسباب". [13]

وهذا الأخير تتمثل فيه الحضارة وكأنها مجموعة عددية تتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي دورة الحضارة. أي أننا أمام جانبين جوهريين للحضارة "الجانب

الميتافيزيقي أو الكوني وهو جانب ذو هدف وغاية. والجانب التاريخي الاجتماعي، وهو جانب مرتبط بسلسلة من الأسباب".[14] فالمجموعات العددية المتتابعة هي الحضارات المتعاقبة، وهي كلها تمثل حلقات متصلة في الملحمة الإنسانية الخالدة وهذا هو وجه الشبه بينها. أما وجه الاختلاف عن بعضها هو من حيث أن "كل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين"[15] فإذا توفرت هذه الشروط كانت حضارة، ثم أنها تهاجر إذا ما اختل تركيبها إلى موطن آخر لتتحول مع إلى حضارة أخرى وفق تركيب جديد للإنسان والتراب والوقت. وفي البقعة المهجورة يفقد العلم معناه كله بسبب توقف اشعاع الروح. فبفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإدارته للعمل. فدورة الحضارة ــ والظاهرة الدورية كما يسميها مالك ــ تحتم علينا حل مشكلاتنا وتحديد إمكاننا من دورة التاريخ حتى يسهل علينا معرفة عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا. "للتاريخ دورة وتسلسلاً، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها إلى نومها العميق. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار، تحتم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، ولأن ندرك أوضاعنا.. فإذا ما حددنا مكاننا في دورة التاريخ سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا وهناك فرق شاسع بين المشاكل في الدورة الزمنية الغربية وتلك التي في نطاق الدورة الإسلامية".[16] يرى مالك أن كل حضارة تقع بين حدين هما الميلاد والأفول. ويمكن عرض نظرية مالك في تركيب الحضارة في صورة تخطيطية. فالمنحنى البياني يبدأ من النقطة الأولى في خط صاعد حتى يصل إلى مستوى نقطة أخرى في خط نازل. أما المرحلة التي تتوسط هذين الخطين فهي مرحلة وسيطة وهي مرحلة القمة وهي طور انتشار الحضارة وتوسعها. [17]

فالظاهرة هي وجود محورين تنتقل من الواحد إلى الآخر القيم الحضارية بصورة دورية، كأنما تاريخ الإنسانية يصنع على محورين بينهما حركة مد وجزر مستمرة تنقل القيم الحضرية"

ولو تتتبعنا الرسم البياني التالي فإنه يوضح لنا :

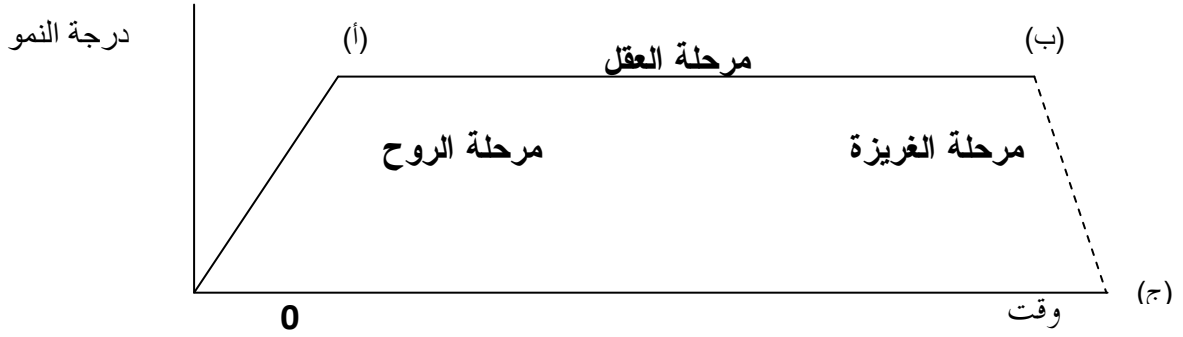

المصدر : [18] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص78؛ وكذلك مالك بن نبي، مشكلة الأفكار (دمشق: دار الفكر، ط1، 1988)، ص44

وقد يحاول مالك تطبيق هذا الرسم البياني على حركة التاريخ الإسلامي، وذلك للوقوف على اتجاه حركة الحضارة الإسلامية في صعودها وهبوطها وذلك ليعرف المسلم تاريخه كقيم ومفاهيم. "وقبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماماً، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة" وهي مرحلة الانحطاط حيث لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة بل عناصر خامدة غير متفاعلة. [19]
إن نقطة الصفر في الرسم البياني التي تسجل الحالة السابقة على الحضارة هي بداية ظهور تركيب العناصر الثلاثة ــ الإنسان والتراب والوقت ــ مما يؤدي إلى ميلاد مجتمع معين. ولكن عالم الأشخاص والأشياء لم يوجد بعد. أما عالم الأفكار فإنه يحتوي على بذرة إمكانياته "كما تحتوي النطفة كل العناصر العضوية والنفسية المهمة في تركيب الكائن" وبهذا يمكن التقرير "أن الفكرة التي غرست بذرتها فيحل التاريخ هي فكرة دينية" أي أن الدين هو أساس بناء المجتمع وهو يخلق نظاماً اجتماعياً للأفراد. فكلما قويت العلاقة الدينية بين نقطة الصفر ونقطة أ، فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل وهي الهدف والمثل الأعلى لجميع الشرائع التي تحاول جاهدة سد أي فراغ اجتماعي. [20]

وفي النقطة أ توقفت النهضة الإسلامية حينما حدث أول انفصال في التاريخ الإسلامي وذلك مع بدء معركة صفين (38هـ) بسبب ذهاب الروح إلى حب السلطة والنزعة القبلية أي أن الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج ومنذ ذلك الانفصال فقد العالم الإسلام قوته وتوازنه ولكن الفرد المسلم ظل متمسكاً في داخله بدينه الإسلامي وعقيدته حتى سقوط دولة الموحدين عند النقطة ب. [21]

أما النقطة ب فإنها تمثل نقطة الانكسار في منحنى التطور التاريخي وهي تتمثل بانقلاب القيم الأخلاقية داخل حضارة معينة. أي أن الإنسان المتحضر فقد همّته وأخلاقه الحضارية فعجز عن تطبيق إبداعه ومواهبه على التراب والوقت مما يؤدي إلى تحلل الحياة الاجتماعية لتحل مكانها الحياة البدائية وقد بدأت هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين في الأندلس الذي يمثل سقوط الحضارة الإسلامية الخالدة فبدأ تاريخ الانحطاط وكان ذلك في عهد ابن خلدون. [22]

نلاحظ من الرسم أن الدورة الحضارة تمر بثلاثة مراحل مختلفة تبدأ بنقطة الصفر التي تمثل إنسان الفطرة فالمرحلة الأولى هي مرحلة الروح (من نقطة الصفر إلى النقطة أ) وهي تتمثل بعلاقات اجتماعية قوية وممتدة وتوحي بعبارة من القرآن "البنيان المرصوص" كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾(34) كما أن الفرد في هذه المرحلة يكون في أحسن ظروفه وفاعليته الاجتماعية. أي أنه بمعنى آخر "هذا هو العصر الذهبي بالنسبة لأي مجتمع، لا من أجل أنه يبلغ آنئذ أوج ازدهاره، وإنما لأنه يتمتع بميزتين: فقواه جميعاً في حركة، وهذه الحركة دائمة صاعدة."

أما في المرحلة الثانية (من النقطة أ إلى النقطة ب) فإن العلاقات الاجتماعية لا تزال قوية ولكن قد ظهر عليها بعض الشوائب والنقص. فالمجتمع يواصل نموه ولكن ليست كل قواه في نطاق الحركة، فلم يعد الفرد المسلم، وهو يباشر وظيفته الاجتماعية، يعمل بكامل طاقته لأن جانباً من الطاقة مضى إلى السكون.
أما المرحلة الثالثة (من النقطة ب إلى النقطة ج) فإن الغرائز تتفكك وتسود الفردية تبعاً لتحرر غرائز الأفراد مما يؤدي إلى انهاير العلاقات الاجتماعية فيختل نظام الطاقة الحيوي وهو ما يسمى بعصر الانحطاط وهو العصر الذي هيأ في العالم الإسلامي الظروف الملائمة للقابلية للاستعمار ثم دخول الاستعمار حقيقة.
يتجلى لنا مما سبق أن مجتمع ما قبل الحضارة يمثل انطلاق الحضارة بينما يمثل مجتمع ما بعد التحضر ــ عند نقطة نهاية تدهور الحضارة ــ القاعدة لانطلاقها من جديد حسب رأي مالك بن نبي.[23]

7- مكونات الحضارة:

يرى مالك كما ذكرنا سابقاً أن عناصر أو مكونات الحضارة هي : إنسان + تراب + وقت.
فأول ما يجب أن نفكر فيه عندما نريد أن نكون حضارة هو التفكير في عناصرها تفكيراً كيميائياً. لأنه إذا حللنا الحضارة إلى مكوناتها فإن هذا يعتبر بناءاً وليس تكديساً. فعندما تحلل أي منتج من منتجات الحضارة فإننا نجدها تتكون من ثلاثة عناصر وأول هذه العناصر هو الإنسان لأنه هو الذي جاء بالفكرة ثم صنع المنتج بيده. [24]
فالإنسان هو محور الفاعلية في حركة الحضارة الإنسانية محدد بالعقل الفكري، وتكوينه الثقافي التي استمده من بيئته الحضارية، "فكل تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظه في الحياة هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة".[25]
وتحتل الثقافة بالنسبة للإنسان المرتبة الرئيسية في بناء شخصيته، لأنها الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته وتتحدد فيه قيمه وأهدافه. فالثقافة التي تقوم على أساس إسلامي هي التي تحقق التوازن في داخل الإنسان وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلاله بشكل متكامل أي أن إصلاح الثقافة يعني إصلاح الفرد والمجتمع.
فتربية الإنسان هي ما يتوافق مع سنة الحياة وروح الإسلام الذي يحض على التكافل الاجتماعي فقد جاء الخطاب في كتابه العزيز: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾.

فمعنى الحضارة "أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكات العلاقات الاجتماعية، في تنيم الحياة الإنسانية، من أجل وظيفتها التاريخية".[26]
ومن هنا يمكن أن نجمل القول بأن التقدم الحضاري يعتمد على دور الإنسان وفعاليته في المجتمع وذلك لأن "القضية ليس قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية في أنفسنا، أن علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول هو الإنسان".[27]

أما العنصر الثاني فهو التراب وهو يعني كل ما على وجهها وفي باطنها من ثروات. وليس المقصود بالتراب هنا البحث في خصائصه وإنما البحث في قيمته الاجتماعية بكونه عاملاً من عوامل النهضة الحضارية. فكلما ارتفت قيمة الأمة وتقدمت حضارتها كلما ارتفع قيمة التراب، وكلما تخلفت الأمة أصبح ترابها على قدرها من الانحطاط. [28]

وهذا التراب من ناحية يتصل بالإنسان في صورة الملكية للأرض فيكون شيئاً حيوياً أما من ناحية أخرى فإنه يتصل بالإنسان من الناحية العلمية والسيطرة الفنية. [29]

أما العنصر الثالث فهو الزمن أو الوقت وما يقصد به هو قيمته عند الإنسان وليس المقصود الزمن المطلق. ويرجع ازدهار الحضارة الإسلامية السابقة في سرعة مذهلة إلى تقديس المسلمين للوقت آنذاك فالوقت يمر على السواء في كل أوض على كل شعب وفرد "ولكنه في مجال ما يصير (ثروة) وفي مجال آخر يتحول عدما." فيجب اغتنام الفرص من الحياة من أجل العطاء فإدراك قيمة الوقت فرداً وجماعة هو إدراك لقيمته التي لا تعرض في العملة الوحيدة التي لا تسترد إذا ضاعت "إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت"[30] فكل منتج من المنتجات الحضارية تتكون من هذه العناصر الثقة. ويرى مالك أن "حتى الكلمة فإنها تعتبر منتوجاً حضارياً" ثم يقول: "فإنا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس على أن أفكر في منتاجتها، وإنما في أشياء ثلاثة". [31]

يمكن إذن التعبير عن كل منتج حضاري بمعادلة رياضية كالتالي :

منتوج حضاري = إنسان + تراب + وقت

وذلك لكل منتج على مدة حتى أصل إلى آخر منتج. وحين انتهى من تكوين المعادلات لكل المنتجات يمكن عندئذ جمعها عمودياً لانتهاء إلى هذه النتيجة الشاملة .

مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت

ومجموع هذه المتجات الحضارية هو أساساً الحضارة نفسها في صورة غير مركبة أيأن النتيجة التحليلية في النهاية تؤدي إلى أن :

حضارة = إنسان + تراب + وقت

ومن هذه المعادلة النهائية نستنتج أن الحضارة هي بناء مركب اجتماعي لثلاثة عناصر وليست عملية تكديس المنتجات الحضارية .

وهذا المفهوم الأول للحضارة عند ابن نبي الذي يعتبر أن الإنسان هو محور الفاعلية بين العناصر الأساسية للحضارة. فإذا كان هذا الإنسان لابُدّ أن ينتقل من ذاتيته إلى الفرد الاجتماعي الحضاري من عالم الأشخاص فإن ذلك لم يتحقق بمعزل عن عالم الأفكار التي تحسن استخدام الوسائل وكذلك لابد من وجود عالم الأشياء التي تمزج للأفكار فرصة إبداع الصناعة والإنتاج وللإنسان رفاهيته وأمنه. [32]

ولهذه المعادلة الأخيرة شروط معينة حتى تتفق مع واقع التاريخ. فالتاريخ يدلنا على أن المركب الذي يتدخل في تركيب هذه العناصر الثلاثة هو الدين كعامل مركب للحضارة لأن هذه العناصر الثلاثة ليس كافية لتشكيل الحضارة بل لابد من المحرك الذي يحول هذه العناصر من حالة خام جامدة إلى حالة متحركة صانعة للحضارة، وهي العقيدة الدينية بمعناها العام .

"أن مالك يطرح الإسلام كملهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرأ من ثقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير إنسانية وهو من هذا الجانب بمنح الفكر الإسلامي الحديث نظرة في عمق التجربة الحضارية تقيله عثرات التقليد والتقوقع في معطيات الحضارة الغربية والعالم الصناعي المعاصر".[33]

فحينما نأتي بالحلول المناسبة للمشكلات التي تواجهها هذه العناصر فإننا نكون قد حققنا الانسجام مع سير التاريخ مما يؤدي في النهاية إلى الحضارة.

8- معوقات الحراك الاجتماعي والثقافي والحضاري عند مالك بن نبي:

أ/ أسطورة الجهل:

الأمية مشكلة اجتماعية وثقافية في البداية وقبل الخوض في الحديث عن الأمية، وضرورة كيفية تجاوزها نقف عند هذا التعريف الموجز للأمية، والذي قدمه عالم المستقبليات الدكتور المهدي المنجرة في حوار له مع مجلة" رسالة الأسرة" المغربية حيث يشير الدكتور في بداية حديثه إلى أن الأمية ظاهرة اجتماعية ليس فقط في العالم الإسلامي بل في العالم بأسره، وفي تاريخ الإنسانية، يقول المهدي المنجرة "إذا بدأنا بالشمال أو الجزء من العالم الذي يعتبر مصنعا، نجد مثلا أن كلمة "أمي" يعني (**analphabète**) في اللغة الفرنسية حسب القاموس الكبير (**le Grand Rober**)، استعملت لأول مرة في سنة **1852**م أي في الجزء الثاني من القرن **19**، وهي كلمة تهم أو تطلق على الأشخاص، بمعنى أن الغرب انتظر حتى الجزء الثاني من القرن **19**، أي بعد التطورات التي حدثت مع الثورة الصناعية، كي يدخل معيار القراءة أو عدم القراءة في سلم القيم الاجتماعي. هذا فيما يخص الفرد، أما كمعيار للتطور الاجتماعي بالمفهوم الشمولي داخل البلاد كلها، فإننا ننتقل من مفهوم :"الأمي" على المستوى الفردي إلى مفهوم "الأمية" كظاهرة اجتماعية. وحسب نفس المرجع-القاموس الكبير-نجد أن عبارة

(analphabétisme) أي "ظاهرة الأمية "لم تظهر إلا في سنة 1922. وإذا رجعنا للإحصائيات نجد أن الأمية كانت مرتفعة جدا داخل العالم المتقدم الآن، حتى الثلاثينات من هذا القرن"[34]. أما فيما يخص دلالة هذه الكلمة" أمية" عند المسلمين والتي كان الناس يطلقونها على النبي صلى الله عليه وسلم "النبي الأمي" فلكي نفهمها "يجب أن نعود إلى المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية، حيث كان هناك أهل الكتاب وآخرون ليس لهم مرجع ، أي ليس لهم كتاب، وهذا هو مفهوم "الأمي" فكل من لم يكن له "كتاب" أو كتابة، يعتبر أميا، ومن هنا لقب النبي "بالنبي الأمي" فهذا مصطلح اجتماعي جاء ليميز العرب –الذين لم يكن لهم كتاب– عن غيرهم من أهل الكتاب. ولكن مع تطور الوقت دخلت هذه الكلمة–أي الأمية–بمعنى عدم القدرة على القراءة والكتابة في اللغة العربية وبقيت متداولة بيننا ولكنها في رأيي ضارة لنا"[35]. ومالك بن نبي يميز بين نوعين من الأمية:

1–ـــ أمية المتعلمين: وهي أخطر من أمية الجاهلين بالقراءة والكتابة، ففي هذا النوع يتم اختزال وظيفة العلم في تحقيق المكاسب الذاتية بدل الإسهام في بناء المجتمع، وهذا ما يطلق عليه اسم "الأمية الحضارية"، والأمي الحضاري هو الشخص الذي يصفه مالك بن نبي بكونه "الصبي المزمن الذي يظل قاصرا عن المساهمة في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية"[36]. ويتحدث مالك بن نبي في مذكراته عن هذه الفئة فيقول: إنها عاجزة عن إدراك لغة الشعب؟ وربما يعجب هنا أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، إنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم، ولكن للشعب عندما يستطيع قراءة تاريخه الصحيح، أي عندما تنقضي تلك الخرافات التي تعرض أحيانا أفلاما كاذبة، والتي سيكون مصيرها في صندوق المهملات مع مخلفات العهد الاستعماري"[37]. فهو يقصد طبقة خاصة من المتعلمين ومن المثقفين التي انفصلت عن الشبكة الاجتماعية وانقطع اتصالها بالشعب الجزائري، وهذه الطبقة لم يكن أمرها شائعا في الجزائر فحسب، بل كانت ولازالت ظاهرة تجتاح البلدان الإسلامية جمعاء: طبقة متعلمة تجهل أسلوب الخطاب والاتصال بشعوبها. ولهذا الانعزال أسباب أهمها "أن البعض – من المتعلمين والنخبة– من أبناء الأمة ينظر إلى رجل الشارع على أنه قاصر ينبغي ألا يخاطب خطابا فكريا أو ثقافيا، لأنه دون مستوى ذلك – في نظرهم– وأنه لا يدرك إلا أنواعا محددة من الخطاب لا يتقنها المفكرون والمثقفون، وبعض الفئات اختزلت واقتصرت في خطابها على الشعار فقط، أو ما يشبه الشعارات من ألوان الخطاب مما زاد في هبوط مستوى رجل الشارع فكريا وثقافيا في بلاد المسلمين كافة، وسادت الأمية الصريحة أو المشوبة بشيء من المعرفة، وشاع الدجل والخرافة والشعوذة بكل أنواعها، وتلك بعض آثار فتنة التقليد، وإيقاف الاجتهاد وتعطيل العقول..." [38]. والخلل أيضا قد يكون كامنا في الطبقة الشعبية التي لا تدافع عن حقها في ضرورة توفر خطاب تفهمه وتساهم من خلاله في التغيير، ولكنه بالدرجة الأولى كامن في النخبة المثقفة التي تجاهلت هذه الطبقة ، خاصة وأننا أصبحنا نلمح ظاهرة تعاود الظهور من جديد في البلاد الإسلامية، وقد كانت شائعة في فترة من فترات الإنسانية: احتكار الغني لكل وسائل العيش والتحضر ومنها وسائل التعليم والتثقيف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تفريط العامة في هذا الحق والنظر إلى الفكر والثقافة بازدراء، فقد "شاع لدى العامة وأنصاف المتعلمين ازدراء الفكر، والهزء بالثقافة والتقليل من شأنها، والنظر إلى الفكر والثقافة على أنها نوع

من الترف من حق الأغنياء المترفين أن يمارسوه،... أما الكادحون فلا يجدر بهم ذلك ولا يليق، وإذا حاول منهم أحد فلا يجد خطابا موجها إليه مفهوما عنده، لأنهم تجاوزوه في خطابهم وأسقطوه من حسابهم، وبذلك حصل الفصام بين القيادة الفكرية والقاعدة الشعبية"[39]. والقضاء على هذه الظاهرة –وجود مثقفين أو متعلمين أميين– "لا يتم بزيادة المدارس وإنما بتحويل التعليم والثقافة من عمليات معرفية ذات أهداف تكديسية أو مكسبية، إلى عمليات تصنع المتعلم الفعال الذي يشكل الطليعة الحية في إحداث التغيير"44، لأن أزمتنا ليست أزمة وسائل ومراكز ومدارس، وإنما هي أزمة توجيه وتخطيط، أو بصيغة أخرى أشمل: هي أزمة فكر، مما أدى إلى أزمة في الخطاب وبالتالي العجز عن التبليغ: تبليغ الفئة المثقفة رسالة الحضارة إلى الجماهير، والعجز أيضا عن المساهمة الثقافية الجماهيرية: "التي شرعت لها الخطبة –خطبة الجمعة– ودروس المساجد والمناسبات الإسلامية جميعا..."وغيرها من الوسائل التي كان من المفروض أن تقوم بعملية التفاعل الاجتماعي، لو أحسن التعامل معها، ولكن تعطيل العقول وتحريم النظر والتدبر والاجتهاد أصاب منهج الخطاب نفسه، وأدى إلى هذه الأمية الجماعية في الوقت الذي كانت الجماهير هي المادة الأولى للتغيير ومحل التثقيف والخطاب اليومي في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة، وكانت محاضرات التثقيف الشعبي للعمال والفلاحين ومحاولة تقديم المناعة ضد الاتجاهات الفكرية التي تعدهم بمعالجة مشكلاتهم ورفع معاناتهم ثم تفصلهم عن دينهم وتراثهم وتاريخهم"[40]. هذا فيما يخص أمية المتعلمين.

2 – أمية الجهل بالقراءة والكتابة: ومالك بن نبي يحمل الجميع في البلاد الإسلامية مسؤولية محو الأمية، وحاول أن يضع برنامجا لتنفيذ هذه العملية والتقليص من نسبة الأمية، وقد وصف البرنامج الذي اتبعه بأنه لا ينبغي أن ينحصر في تلقين المعلومات "بل تكوين شخصية ذات أبعاد ربما تكونها طفرة واحدة أو بعض الهزات النفسية"، وحتى يتم تطبيقه اعتمد مالك بن نبي على مادتين: ــ مادة الحساب والتي :" كان يستخدم فيها طريقة إملاء الأعداد بشكل ينتقل معه التلميذ من عدد لآخر أكبر منه ثم أكبر فأكبر حتى ينتج عنده إحساس باللانهائية تلقائيا، يقول مالك بن نبي في ذلك:" بعد ثلاثة أو أربع حلقات أصبح هؤلاء الذين لم يكونوا يعرفون كتابة العشرة الأولى، يستطيعون كتابة ما شاءوا من البليونات والتريليونات بلا أي تردد، فاقتصد التلاميذ بهذه الطريقة المتبعة شهرا من التمرين و عاشوا أثناء تمرينهم المختصر لحظات منعشة كنت أتصورها في نفوسهم خلال خطواتهم الجادة نحو: "اللانهائية" وأثناء هذه الخطوات ذاتها بدأوا يتعرفون على العمليات الأربع وعلى تطبيقها مباشرة في حل مسائل حسابية"[41]. هذا فيما يخص مادة الحساب، وقد اعتمد أخرى هي: ــ الجغرافيا: " كان مالك بن نبي يبدأ معه بالسؤال: من أين أنت فيجيب الأمي عن اسم مسقط رأسه ثم عن الناحية فالعمالة/الولاية، بحيث يتسع تصوره المكاني إلى أن يصبح قادرا على الإجابة عن السؤال: أين توجد الأرض فينتصر على حدوده العقلية الموروثة"[42]. ومالك بن نبي سمى هاته الطريقة بـــ"مفهوم اللانهائية"، وإلى جانب هذا المفهوم اعتمد على مفهوم آخر مفهوم "الخبرة"، حيث كان "يدفع بهم إلى المبادرة والتفاعل الحركي في التعلم لتشجيعهم على – التغلب على عقدهم الموروثة عن بيئة بدائية"[43]. وبذلك يؤكد مالك بن نبي على أن محو الأمية لا تتوقف عند

تعليم القراءة والكتابة وإنما يجب" أن تكون في خدمة التوعية الحضارية والتغيير والصياغة السلوكية حتى يكون الأفراد مؤهلين تربويا وثقافيا لإعادة البناء والمساهمة فيه. فعملية محو الأمية إذن، يجب أن تخرج من دائرة تعليم القراءة والكتابة إلى دائرة أوسع وهي العمل على تثقيف المواطن وتوعيته أيضا بواقعه وبضرورة التغيير منه، وفق رؤيته ومبادئه وقيمه الخاصة، لأن الثقافة لا تعني الكتب والدراسات فقط، بقدر ما تعني النظرة التي تطور الحياة. لهذا لابد لعملية محو الأمية أن تضيف مهمة أخرى إلى جانب مهمة تعليم القراءة والكتابة وهي تقديم المادة الثقافية التي ترفع من مستوى المواطن في عصر توافرت فيه المعبرات الجماهيرية الضخمة وعلى صورة لم يسبق لها مثيل من قبل، وهي معبرات شعبية جماهيرية بالدرجة الأولى على رأسها التلفيزيون والإذاعة والأنترنت و.... ولماذا القول بضرورة الخروج بمحو الأمية من دائرة تعليم القراءة والكتابة إلى دائرة التثقيف؟؟ ينبغي توسيع دائرة عمل محو الأمية حتى يتحقق اكتساب الخطاب الجماهيري الذي يمكننا من الخروج بالقاعدة الاجتماعية من دائرة اللاوعي إلى دائرة الوعي بالواقع المعيش، وبذلك يكون السعي إلى التغيير ليتحقق في الأخير الدخول إلى الدائرة الحضارية، وما لا ينبغي إغفاله هو أننا نمتلك خطابا جماهيريا رفيعا، ولكننا كثيرا ما نهمله، هو الخطاب القرآني، فهو خطاب شمولي، ولربما تعتبر شمولية الخطاب في القرآن الكريم واستيعابه لكل الأفراد على اختلاف مستوياتهم في الفهم، من أهم وجوه إعجازه، فقد جمع بين اليسر في الفهم والامتناع في الأسلوب...وكان لكل واحد نصيبه من الخطاب بحسب ما يمتلكه من قدرات ذهنية. لهذا لا ينبغي لقادة الفكر أن يبحثوا لأنفسهم عن الأعذار في تعقيد الخطاب، أو محاولة الإيهام بأنه خطاب نخبوي لا يهم العامة:" لأن للنخبة خطابا لا يغني عن خطاب الأمة، فلرب مبلغ أوعى من سامع، والله أعلم حيث يجعل رسالته... فإذا استصعب الناس الخطاب أو لم يفهموه، فالمشكلة في أصحاب الفكر وليس في الأمة. ذلك أن أهم مواصفات الخطاب، إدراك الناس له، بمخاطبتهم على قدر عقولهم"[44]. هذا فيما يتعلق بمحو الأمية وضرورة إيجاد خطاب جماهيري شامل للخروج بالثقافة من إطار النخبوية إلى العامة

ب– أسطورة الفقر: والتي" ليست بأقل خطورة ، وحسبنا أن ننظر إلى ما يملك الفرد المسلم الثري من مال لنرى مدى فاعليته الاجتماعية، لقد زاد أغنياء المسلمين على فقرائهم في العطل، على الرغم مما يملكون من ثروات، وكثير من أولئك الأغنياء لا يهتمون برعاية طفل مسلم لتربيته تربية عملية أو فنية، بل لا يهتمون برعاية عمل ذي فائدة عامة، فيقبلون عليه طائعين متنازلين عن قليل من رفاهيتهم"[45]. الفئة الغنية في البلاد الإسلامية تتجه بإنفاق أموالها إلى مجالات عديمة الإنتاج في الوقت الذي تعاني فيه هاته البلاد من أزمة في مجالات وقطاعات متعطلة عن العمل وعن الإنتاج، وهاته المجالات لو تم الإنفاق من أجل تغطية متطلباتها لكان أنفع وأسلم للخروج بالأمة من أزمتها، ومن هذه المجالات نذكر المجالات أو المراكز التعليمية التي فتحت أبوابها على المناهج الغربية، وليت الأمر توقف عند هذا الحد فحسب، وسخرت الأموال من أجل خدمة هذه المناهج، بل أصبح هذا المجال فقيرا ماديا ومعنويا، صرفت عليه الأموال، وفي مجالات رأوها أجدر بالاهتمام، كما أنه فقد هويته الإسلامية في معظم مظاهره إلا البعض منها، ومالك بن نبي يضرب لنا مثالا يعكس لنا من خلال هذه الظاهرة التي لم يتصف بها الغني

فحسب، بل إن الفقير فيها لا يبدو أقل استعدادا من الغني، فلننظر إذن أين يستخدم الفقراء نقودهم، يقول مالك بن نبي:" لقد لاحظت ذلك أخيرا في قرية صغيرة من قرى قسنطينة، حيث توجد مدرسة هي المؤسسة الوحيدة ذات النفع العام، هذه المدرسة توازن بصعوبة ميزانيتها السنوية المتواضعة في حدود ست مائة ألف فرنك (ست مائة جنيه تقريبا) ولكني قمت بتقدير إجمالي من واقع الإحصاءات، خرجت منه بنتيجة هي أن هؤلاء الفقراء–الذين يعانون الفقر فعلا– قد أنفقوا في ليلة واحدة أكثر من مائتي ألف فرنك، ما بين دارين للخيالة، وملعب للسرك وكوخ قمار وبعض المقاهي، فلو أننا اعتمدنا على جملة أرقام من هذا النوع، لأمكننا أن نقوم سعر فاعلية رأس مال المسلم، أعني ميزانية المشروعات النافعة–كالمدرسة–وميزانية التوافه التي أحصينا أنواعها، وسنجد أن نسبة السفه في الحالة المذكورة هي :خمسة وتسعون بالمائة وهذا دليل التطور المقتصر على نمو الحاجات السائدة في ميادين الحياة الإسلامية الحديثة"[46]. فمجتمعاتنا الإسلامية اختارت الواجهة المعاكسة للصراع: 95 في المائة من رأسمالها ينفق فيما يجر عليها الخراب، والصراع الحالي هو صراع فكري ثقافي، ومع ذلك تنفق نسبة كهاته في مظاهر يقال عنها "ثقافة" أو "ثقافة شعبية"–إن صح التعبير– وليست الثقافة الشعبية البانية التي تقيم الأساس المتين للقيام بالمجتمع، ولكنها ثقافة أكثر ما يمكن أن يقال عنها "تهريجية" وهي التي يمكن نسبتها إلى القسم الثالث من الأقسام الثقافية الثلاثة السابقة الذكر، في الوقت الذي كان من الممكن أن تنفق هذه الأموال فيما هو أنفع وأجدى، كاستثمارها في مشاريع اقتصادية تعود على المجتمع الإسلامي بالمنفعة، أو نفقاتها في بناء مراكز خيرية تأوي من لا ملجأ له، والمشردين، وتساعدهم ماديا ومعنويا، ومراكز تعليمية للفقراء الذين لم تساعدهم ظروفهم المادية على التعلم، ومراكز طبية أو صحية ترحمهم من "الطب التجاري" الذي أصبح رائجا في مجتمعاتنا، وتنفق أيضا على أبناء الأمة في بعثهم إلى البلدان التي تعتبر داخل أو قائدة الركب الحضاري للاستفادة منها والأخذ عنها في مجالات العلوم والصناعة والتقنية، ليفيدوا بلادهم وأمتهم جمعاء، وبالتالي يأخذون بيدها لتلحق بالركب الحضاري. بهذا، يبقى الوضع الاجتماعي للأمة الإسلامية ضحية التعتيم الثقافي، ومحاولة الخروج به إلى النور ستعترضها عراقيل منها التي سبق ذكرها: الجهل، اللاوعي، الفقر...صحيح أن معظم الشعوب الإسلامية تعاني من الفقر المادي، ولكن المشكلة لا تكمن في وجود الفقر فقط، وإنما تكمن في انعدام الإحساس بالهم التغييري لهذا الوضع، ويرجع ذلك إلى عدم استخدامنا للوسائل المتاحة لنا استخداما مجديا، وكثيرة هي الأفكار المهمة التي تنتظر فرصة النزول لساحة التطبيق، ولكن دون أمل، نظرا لعجز أصحابها المالي، في الوقت الذي تهرب فيه أموال الأمة إلى حيث لا ندري، لتبقى أفكار مفكرينا حبيسة التنظير دون التطبيق.

ج – أسطورة الاستعمار: وهي التي تعجز ذوي القلوب الطيبة، وتسوغ أحيانا أعمال المخاتلة والاختيال الأخلاقية والسياسية"[47]. وقبل الخوض في الحديث عن القاعدة الثالثة تجدر الإشارة إلى العامل الكامن وراء القاعدتين الأولى والثانية وهو عامل ذاتي داخلي أكثر ما هو خارجي، وهو ناتج عما أسماه مالك بن نبي بـــ"القابلية للاستعمار". والاستعمار يعتبر سلاحا مدمرا بطريقة منهجية للفكرة وللجهد العقلي، أو أي محاولة للبعث الأخلاقي أو الاقتصادي، بمعنى أنه سلاح يخرب كل ما من شأنه أن يخرج الشعوب المستعمرة من أزمتها،

ولكن الاستعمار ما كان ليلج لهاته الشعوب ويخربها لولا تواجد تلك القابلية للاستعمار، وفي الحقيقة أصبح الاستعمار الذريعة الوحيدة، أو المبرر الوحيد الذي نقدمه لنواري عجزنا عن القيام بعملية الخروج مما نحن فيه، فهو فعلا سبب من أسباب أزمتنا، ولكن ليس هو السبب الأول الكامن وراء عجزنا وخمولنا الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي... لهذا ينبغي قبل أن نصدر هذا الحكم أن نبحث في جذور الحركة الاستعمارية، وألا نقف عند حدود حاضرها، ويشترط مالك بن نبي أثناء القيام بعملية البحث هاته –أو التقصي– أن نقوم بها بوصفنا علماء اجتماع، لا علماء أو رجال سياسة "وسندرك حينئذ أن الاستعمار يدخل في حياة الشعب المستعمر بصفته عاملا مناقضا يعينه على التغلب على قابليته له، حتى أن هذه القابلية التي يقوم على أساسها الاستعمار، تنقلب إلى رفض لذاتها في ضمير المستعمر، فيحاول جهده التخلص منها، وليس تاريخ العالم الإسلامي ... سوى النمو التاريخي لهذا التناقض، الذي أدخله الاستعمار على الأوضاع التي تخلقت في ظلها القابلية واتسمت بها"[48].

إذن، خلال الحديث عن هذا الاستعمار ينبغي ألا نغفل النظر إلى هاتين الفكرتين المتلازمتين، وإن كانتا في الحقيقة متمايزتين: الاستعمار والقابلية للاستعمار... وحتى نضمن نجاح أي منهج نختاره لمواجهة هذا الاستعمار سواء أكان متصلا بنظرية في السياسة أم في الإصلاح، يجب ألا نغفل عن ضرورة ربط هذا المنهج أو ذاك حيث نتناول المشكلة بكل الأبنية والجوانب وليس الاقتصار فقط على جانب دون آخر وإلا سنكون قد "غامرنا برؤية مشكلة مزيفة"[49].

وتبقى النتيجة واحدة مهما طال الحديث عن الاستعمار والقابلية له، وهي أنه لا يمكننا بأي حال كان التخلص من أثر الاستعمار دون العمل على التخلص من القابلية له: السبب المباشر للأزمة الاجتماعية، والثقافية والسياسية... وهاته القابلية ناتجة كما أشار إلى ذلك ابن نبي عن عامل نفسي يولد لدى الأفراد بالأمة الإسلامية نتيجة الإحساس بالنقص تجاه حضارة الغرب، فالخلل إذن في نفوسنا بالدرجة الأولى وليس في غيرنا، والفوضى التي تعيشها الأمة الإسلامية عواملها داخلية أكثر منها خارجية، ومن ثم يقتضي الوضع ضرورة التغيير، والتغيير بدوره لابد أن يخضع لترتيب معين: تغيير ما بالقوم أولا، ثم يأتي تغيير الله لما يحيط بهم ولما يمتلكون: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ، وأنفسنا أصبحت لها–كما كانت لها في فترة سابقة–قابلية لكل أشكال الاستعمار–المباشر وغير المباشر– وبمعرفة السبب يبطل العجب، أي بمعرفة سبب الاستعمار سنخرج من مرحلة العجب إلى مرحلة العلاج والتغيير الذي تكون أولى مراحله ذاتية لضمان استمرارية المراحل الأخرى للتغيير في أوضاع صحيحة.

9– النموذج الماليزي للتغير الحضاري :

عانت ماليزيا لأعوام مديدة من الاستعمار الذي نهب خيراتها وعزّز في أبنائها الجهل والتخلّف، فقد خضعت لوطأة الاستعمار الغربي لمدة خمسمائة عام، فابتدأ بالاستعمار البرتغالي ثم الهولندي ثم البريطاني.

لقد كانت بداية حراك المجتمع الماليزي نحو النهضة في ظهور حركات التجديد والإصلاح الديني بعد أن اختلّت عقائد الناس وانتشر بينهم الجهل والخرافة.

لَمسَ ذلك الخلل الفكري العميق ثلّة من المصلحون المخلصون فبدأوا بعميلة الإصلاح وتقويم عقائد الناس ونشر الوعي

الديني بين الأفراد عن طريق إنشاء المساجد والمدارس ,وبذلك برزت عدة شخصيات دينية قيادية أعادة الدماء لحياة الشعب الماليزي ,من خلال إيقاظ الوعي بالقضايا الدينية...

أي أن بناء الحضارة الماليزية تأسّس على تغيير عالم الأفكار أولاً لدى الأفراد بنشر العلم الديني السليم ,والاستفادة من تجارب البلاد الإسلامية التي سبقتها في هذا النهج ,كما أن حركة التغيير الفكري لم تقتصر على إصلاح العقائد بل أيضاً دعت إلى الاجتهاد والتجديد الفقهي حسب مقتضيات العصر واحتياجات المجتمع بما يتوافق مع مقاصد الشريعة الإسلامية...

هكذا تم تحريك الأفراد فكرياً فنتج عن ذلك الحراك الفكري المتحرّر من عبودية الجهل والتقليد ,حراك سياسي يسعى للحرية والتخلّص من الاستعمار عن طريق تكاتُف جهود منظمات عَمِلَت على تحرير البلاد من الاستقلال وعودة ثروات الأرض لأبنائها بقيادة أشخاص أدركوا قيمة الحرية ,وبعد نضال مضنٍ وطويل حصلت ماليزيا على الاستقلال من الاستعمار البريطاني عام 1957م ,وهكذا نشأت دولة ماليزيا مستقلة ,عندما ارتقى عالم أفكارها لمستوى القضية مما انعكس على عالم الأشخاص والأشياء .

ومن المعروف أن الدول التي وقعت في قبضة الاستعمار تجد نفسها بعد خروج الاستعمار صفراً ..تعاني الفقر والتخلّف الاقتصادي ,وهذا ما دفع الحكومة إلى الإسراع في دفع عجلة التنمية الشاملة , بوضع خطة استراتيجية لتطوير البلاد اجتماعياً واقتصادياً وفي فترة زمنية محددة كانت مدتها عشرون عاماً من عام 1970، وبذلك تكوّنت لديها عناصر بناء الحضارة كاملةً ,كما وضحها مالك بن نبي...(كل ناتج حضاري =إنسان+تراب+وقت) فنجدها بنتَ الإنسان أولاً ,ثم حررت الأرض ,وجعلت عامل الزمن نصب عينيها..

إن النهضة التي قادها مهاتير محمد ,تحرّك لها المجتمع بأسره كباراً وصغاراً مسلماً وبوذياً ,للقيام بعميلة التنمية والتغيير لتصبح ماليزيا في مصاف الدول المتقدمة كدولة إسلامية ,بدءاً بإنشاء بنية اجتماعية مستقرّة تحقّق المساواة والعدل والحرية على أساس التجانس بين العرقيات والأديان المختلفة ,ورفع الدخل السنوي لكل فرد

,مروراً بالتعليم والزراعة والصناعة وكافة المجالات حتى باتت ماليزيا قبلةً لطلاب العلم من أبناء العرب والمسلمين ,بالإضافة إلى المظهر الحضاري الذي تتمتع به ماليزيا من عمران ومدنية حديثة بنبض يحمل نور الإسلام , إلى جانب المصانع التي تنتج صناعات حديثة بمواصفات دولية.

ومازالت ماليزيا مستمرّة في خطتها الشاملة نحو التنمية والتقدّم...

فالتجربة الماليزية في التنمية والتطوير نموذج يستحق النظر والدراسة كونها دولة إسلامية بنت حضارتها في العصر الحديث, وأثبتت قوتها ووجودها بين الأمم...

خـــاتـــمـــــة:

كانت هذه مشكلة من أهم المشكلات الحضارية: مشكلة التغيير الثقافي الاجتماعي، حاولت الوقوف عندها من

خلال رؤية مالك بن نبي لها، وكيف أنه اكتشف فيها مواطن الخلل، وعمل على طرح مشروعه التغييري من أجل التغيير منها وفق رؤية إسلامية. وقد بنى مشروعه على "الفكرة"، فإذا توفرت الفكرة السليمة الخالصة لا محالة ستؤتي عملية التغيير أكلها، أما إذا كانت الفكرة مشوبة بالغموض، وبرواسب ميتة أو محتوية على مضامين مميتة، فلن يكون هناك تغيير وبناء وإنما سيكون ركود وهدم. وهذا ما سعيت إلى توضيحه من خلال الفقرات السابقة، إذ ركزت على الجانب الاجتماعي–عالم الأشخاص– والجانب الثقافي–عالم الأفكار– ومدى الدور الخطير الذي أصبح يلعبه هذا الأخير في التحكم في تسيير وتوجيه كل المجالات والعوالم التربوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية...ولقد أدرك ابن نبي هذا الأمر وكرس جهوده من أجل الكشف عنه حتى يصبح باديا للعيان والأسماع، وكذلك للأقلام عساها تتحرك في هذا الاتجاه: الكشف عن دور الفكرة في بناء المجتمع، وفي جل مؤلفاته–إن لم نقل الكل– كان يؤكد باستمرار على ضرورة توفر المجتمعات الإسلامية على عالم أفكار سليم وبان حتى تتمكن من إقامة صرح حضاري متكامل ينتج ولا يستهلك فقط–وكما قال مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة–"إن شراء المنتجات المادية لا يمكن من إنشاء حضارة لأن ذلك ليس إلا تكديسا يؤدي إلى "حضارة شيئية" فارغة من الروح والذوق والجمال." وحتى تكون لهذا المشروع التغييري نتائج طيبة علينا أن ننظر أولا هل فعلا الأساس –الثقافة أو الفكرة–الذي يقوم عليه هو أساس سليم أو لا؟ حيث مازالت الفكرة في مجتمعاتنا الإسلامية تعاني من سلاح ذي حدين: ــ الحد الأول: يتمثل فيما ورثه العالم الإسلامي من أفكار وثقافات، التي وإن صلحت في زمانها فإنها لم ولن تصلح في زمننا، لأنها أصبحت ميتة. ــ الحد الثاني: الثقافة والأفكار المستوردة من "الآخر الحضاري" والتي زادت في تأزيم الوضع لأن النخبة التي قامت بنقلها غابت لديها عقلية التحليل لها والنقد لما تأخذه وكذلك غابت عقلية الإبداع والتجديد، فكانت هذه الأفكار مميتة. لهذا–وحتى يكون التغيير شاملا–لابد من غربلة ثقافتنا وأفكارنا ليسقط الميت والمميت منها، ويبقى الصالح القادر على الاستمرار والمواجهة. ولست أملك في الختام إلا القول بأنه لا بد من إعادة النظر فيما نأخذه من أفكار وفيما نقرأ، ليس عيبا أن نستفيد من التراكم الثقافي والمعرفي المخزون لدينا، وليس عيبا أن نستفيد من ثقافات الأمم الأخرى، ولكن العيب كل العيب أن نتقوقع في الماضي وأن ننساق وراء جديد الآخر في كل شيء، وكلنا نعلم أن أعداء الإسلام استغلوا هذا الأمر لدى شعوب الأمة الإسلامية وكثفوا الجهود للدخول من هذا الثغر. فأمتنا أحوج إلى من ينفض عن ثقافتها وحضارتها عموما الغبار الذي تراكم عليها، وأملها في شبابها أكبر، خاصة وأن الصحوة الإسلامية بدأت تجتاح الساحة، وإن كنا نعلم أنها لم تقدم بعد الشيء الكثير في كل المجالات، ولكن بامتلاك "الفكرة" البناءة، والإرادة يمكن أن تحقق أمرا كبيرا رغم ما يخطط لها من خارج هذه الأمة، لأن الله تعالى وعد عباده المؤمنين بأنه "متم نوره ولو كره الكافرون".

المراجع :

(1) عكاشة، شايف، الصراع الحضارة في العالم الإسلامي: دارسة تحليلية في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، ط1، 1986)، ص17 .

(2) حوار مع مالك بن نبي، مجلة الشبان المسلمين، العدد 171، مايو 1971، ص16، 17، أخذا عن الخطيب سلمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993)، ص127 .

(3) مالك بن نبي ، النجدة (القاهرة: المطبعة العالمية، 1957)، ص5؛ أخذاً عن السحمراني أسعد، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً (بيروت: دار النفائس، ط2، 1986)، ص143 .

(4) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص89 .

(5) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصابور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط3، 1984)، ص77 .

(6) مقلاتي صحراوي، مقومات الرؤية الحضارية في فكر مالك بن نبي (رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، 1995)، ص12 .

(7) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص67 .

(8) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص88؛ ومسقاوي، عمر كامل، نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، ط1، 1979م)، ص33ــ34 .

(9) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص37 .

(10) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص36 .

(11) الخطيب سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993)، ص37 .

(12) نص حوار مع مالك بن نبي، مجلة الشبان المسلمين، العدد 171، مايو 1971، ص16ــ17.

(13) مقلاتي صحراوي، نفس المرجع، ص7 .

(14) مالك بن نبي ، شروط النهضة (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 19878)، ص21 .

(15) مالك بن نبي، شرط النهضة، ص56 .

(16) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص50 .

(17) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع، ط5، 1986)، ص32 .

(18) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص78؛ وكذلك مالك بن نبي، مشكلة الأفكار (دمشق: دار الفكر، ط1، 1988)، ص44 .

(19) مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص38، أخذاً عن سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص212 .

(20) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص27 .

(21) المرجع نفسه، ص28 .

(22) المرجع نفسه، ص27 .

(23) المرجع نفسه، ص27ــ31 .

(24) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص52ــ53 .

(25) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص73ــ74 .

(26) مالك بن نبي، تأملات (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1986)، ص109

(27) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص78؛ وكذلك مالك بن نبي، مشكلة الأفكار (دمشق: دار الفكر، ط1، 1988)، ص44 .

(28) الخطيب، مرجع سابق، ص99 .

(29) المرجع نفسه، ص78 .

(30) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص31 .

(31) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع شكبة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر للطباعة، ط3، 1986م)، ص55ــ58 .

(32) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ص29 .

(33) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ص36 .

(34) المرجع نفسه ، ص 38.

(35) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص77ــ78 .

(36) مالك بن نبي، تأملات، ص168 .

(37) مالك بن نبي، تأملات، ص114 .

(38) السحمراني أسعد، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً (بيروت: دار النفائس، ط2، 1986)، ص215 .

(39)مالك بن نبي، تأملات، ص32.

(40) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص94 .

(41) مالك بن نبي، تأملات، ص25 .

(42) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص139 .

(43) مالك بن نبي، تأملات، ص168 .

(44) عكاشة، شايف، الصراع الحضارة في العالم الإسلامي: دارسة تحليلية في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، ط1، 1986)، ص109 .

(45) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص145ــ146 .

(46) مالك بن نبي، تأملات، ص170 .

(47) الخطيب، ص82 .

(48) مسقاوي، عمر كامل، ص47ــ48 .